دراسات أدبية

على هامش السيرة

- ٣ -

بقلم الاستاذ محمد شيت الخياري

تعريف:

مؤلف الكتاب الدكتور طه حسين الغني عن التعريف لما له من المؤلفات والمصنفات والمقالات البديعة في ميادين الأدب والاجتماع والسياسة في اللغتين العربية والفرنسية .

أهمية الكتاب :

ان الكتاب الذي بين ايدينا عبارة عن بضع عشرة مقالة عن السيرة النبوية وما يتصل بها وهي خواطر فاضت بها نفس المؤلف عندما قرأ السيرة النبوية في تآليف ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري . ويمكننا ان نعتبر فصول الكتاب ثلاثة اقسام :

اولها :

تمهيد ومقدمة لحياة الشارع الاعظم ويمثلها « حفر زمزم » وقد صوره الكاتب بطريقة خيالية روائية بارعة (فالتحكيم) وهو كيف اختصم القرشيون لامتلاك بئر زمزم وكيف ظفر بها اخيراً عبد المطلب « والفداء » كيف نذر عبد المطلب ثم حاول ان يذبح ابنه عبد الله ثم فداه بمائة من الابل . « والاغراء » في زواج عبد الله من آمنة بنت وهب وافراء عبد المطلب لابنه عبد الله في السفر الى الشام للربح والتجارة « والبين » في رجوع عبد الله وموته في يثرب وما كان لذلك من وقع عند اهله وحاشيته .

ثانيها :

في انتشار اليهودية ثم النصرانية في بلاد العرب وتجدها في فصول « القضاء » عن التبابعة وكيف انتشرت اليهودية في بلاد اليمن و (الردة) و (الطاغية) في قتل عمرو لاخيه حسان بن تبع وارتداده عن دين ابائه وخراب اليمن على عهده ثم مقتله وتفرق أمر حمير وضياع الملك العربي في اليمن . فهاتان المقالتان تمثلان زوال الوثنية وسيادة اليهودية والعكس بالعكس ثم (البشير) عن تبشير كيمون ونشره المسيحية و (زاهب الاسكندرية) في الانتقام للمسيحية في اليمن وتأثير الرومان وحملهم النجاشي وقواده ان يثأروا للشهداء المسيحيين في نجران ، ونجاحهم في الغزوة وتنصيرهم لليمن وبنائهم كنيسة صنعاء كي تضاهي الكعبة ، ثم غزو الاحباش للكعبة ورجوعهم عنها خائبين .

ثالثها :

وهو القسم الاخير يتضمن الابحاث الاتية (اليتيم) في نشأة النبي وقصة ميلاده و (الحاضنة) في احتضان الجارية له ورحلته معها ومع والدته الى يثرب حيث شاهد اخواله بني النجار ، وفي اثناء العودة توفيت والدته فبقي في عهدة الحاضنة وحسن رعايتها . ثم نرى وفاء الحاضنة له في حياتها . وعماتها في خلافة عثمان بن عفان و (المرضع) عن حياته عليه السلام في البادية وبركاته لحليمة مرضعه ثم حديث شداد بن اوس عن النبي وما جرى له مع شيخ بني عامر والحديث ذو مكانة مرموقة لانه يتعلق بأمر النبوة علاوة على اعطائه صورة واضحة لحياة الشارع الاعظم ، ويدل الانتقاء واختيار المناسبة على قدرة كبيرة واطلاع واسع و (البر) عن نشأة الرسول في كنف جده عبد المطلب ووفاة جده وقيام عمه ابي طالب في تربيته وفي هذا البحث حسن الخاتمة في استغفار النبي لامه ولرجل آخر ثم توجيه اللوم له في كتاب الله عز وجل . والمرمى من ذلك كله توجيه الناس نحو المبادئ السامية والمثل العليا في الاقتداء بالسيرة الطاهرة .

فالكتاب عرض تاريخي بديع في ثوب ادبي قشيب ارتبطت

حوادثه باسباب اجاد الكاتب في تحديدها ببراعته المعروفة وأسلوبه الجذاب . واهم من هذا كله انه في الموضوعات الاولى بصورة خاصة صور الحياة العربية قبيل الاسلام اي في الفترة الاولى من حياة الرسول ، فحين تقرأ الكتاب تشعر بلذة وانتعاش فكأنك انت نفسك بين اولئك الاعراب الاذكياء تحس بما يحسون وتتألم مما يتألمون . فالكتاب عرض طريف للسيرة باسلوب حلو عليه مسحة الابتكار مما يقربه الى الاذهان العصرية ويزيدمن قيمته ويضعه بين مصاف انتاجات (المدرسة الحديثة) في الكتابة .

فالاحرى الشبان ان يقرأوا السيرة النبوية ويتهذبوا بآدابها ويتمسكوا بمبادئها ويسيروا على هداها وهاهم بين ايديهم هذه التحفة الثمينة التي صاغها الكاتب صوغا دقيقاً حيث اسبغ عليها من مقدرته الفائقة وثقافته الواسعة ماجعل الكتاب اية في الامتاع والجودة .

ومما يلفت نظري ماذكره المؤلف في بحث عبدالله بن عبد المطلب عن اقتراب الحرام منه بما كان ينوي من السوء لفاطمة الخثعمية وذلك يدعوني ألا اقطع بصحة ما قاله بل اشك فيه ، وكذلك مقال (البشير) في تبشير كيمون والصراع بين النصرانية واليهودية فقد وجدت اوله غامضا لاتدرك الغاية منه بسهولة مما يجعله غير منسجم مع بقية البحوث .

اسلوب التعبير :

لطه حسين كما لغيره من كتاب المدرسة الحديثة اسلوب خاص به اهم صفاته السهولة والوضوح وتنظيم في المعاني يتبعه ترتيب في الالفاظ فهو بعيد عن المعاني العادية منزه عن الالفاظ العامية كما انه خال من الاغراب والزخرفة وكل هذا مما يدخل ضمن البلاغة المقبولة اذ لا يحتاج القارئ الى مراجعة المعجم حين مطالعته الكتاب ، اللهم اذا استثنينا بعض الكلمات جاءت عرضا في تضاعيف الكتاب غير ان معانيها ذكرت في الحاشية واسلوب الكاتب مكون من فقرات وجمل ليست طويلة ولكنها تمتاز بجودة الرصف والنظم وحسن السبك والانسجام .

وقد يستشهد بابيات من الشعر وذلك لاكمال المعنى وتوضيح الفكرة كما في (ص ٥٠ ، ٥٢) ويتأثر الكاتب بالعلم لكنه يخضعه للادب ففي (ص ٧٠) نجد كلاما علمياً فلسفياً يكاد يكون لاهوتاً صرفا ولكن المسحة الفنية لاتفارقه ، وهذا مالمسته في كتبه الاخرى كالادب الجاهلي ايضاً .

ومن احوال الكاتب ولعه بالتكرار اللفظي والمعنوي (لاحظ ص ي في المقدمة وص ٢) .

وهاك بعض عباراته المتكررة :

ويتفاكهون من اولئك وهؤلاء ويسخرون من اولئك وهؤلاء (ص ٥) . فيها حب لاحد له ورغبة لاحد لها وحنان لاحد له ايضاً (ص ٤٢) .

وكان في هذا الصوت غموض وكان في هذا الصوت الابهام وكان في هذا الصوت . . . وكان . . . وكان . . . الخ (ص ٢) .

ومما اعاده بضع مرات جملة (وكما ذهبت) (ص ٢٥) .

كما اورد سبع جمل كل واحدة منها مصدرة بكلمة (كنّ) (ص ٩٢) واربع جمل مبدوءة بكلمة (كأن) (ص ١٠٥) وست جمل تبتدئ بكلمة (إذا) (ص ١٧٢)

وكثير غيرها .

ويروق له الا يعطي حكما عاما قطعياً في بعض الامور وان كان في نفسه جازما ولذا فهو كثيراً مايستعمل هو كذا ، وبكاد يكون كذا ، وعي ذاهلة او كالذاهلة ، ولكنها لاتستطيع ان تريد او تنفذ ماتريد . . .

وعلى الجملة فاسلوبه بارع وعليه طابع خاص هو طابع الدكتور طه حسين لايشاركه فيه غيره .

الموصل — محمد شيت الحياوي

المحامي سلمان محمد آل ابراهيم

يتوكل بكافة الدعاوى داخل العشار وخارجه (رقم التلفون ٥٠٢) ويراجع بشأنه في النجف ادارة مجلة البيان (رقم التلفون ١٥٢)